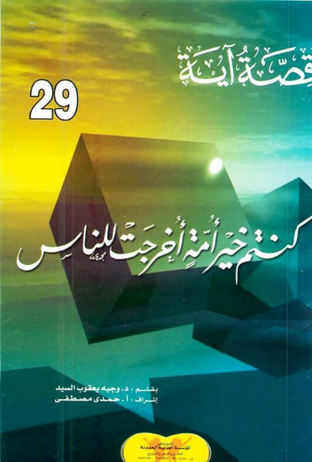

قصة آية
29
كنتم خير أمة أخرجت للناس
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى
طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

كُنتُم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للناسِ

قَالَ (تعالى) :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة آل عمران : ١١٠]

الْتَقَى مَالكُ بْنُ الضَّيْفِ وَوَهْبُ بْنُ يَهُوذَا الْيَهُودِيَّان بِجَمَاعَةٍ مِنْ صَحَابَةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وهُمْ عَبْدُ اللَّه بْنُ مَسْعُود ، وأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ ، ومُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، وَسَالِمٌ مولَى أَبِي حُذَيْفَةَ.

وكَانَ لَدَى الْيَهُودِيَّيْنِ الرَّغْبَةُ فِي إِيذَاءِ

مَشاعِرَ الْمُسلمين فَقالَ أَحدُهما :

ـ كَيْفَ تَزْعُمونَ أَنَّكُمْ خَيْرُ الأُمَمِ ؟

وَقالَ الآخَرُ :

ـ نَحْنُ أُمَّةَ الْيَهودُ خَيْرُ الأُمَمِ ، وَنَحْنُ أَبْناءُ اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، فَضَّلَنا عَلى كُلِّ الأُمَمِ وَآثَرَنا عَلى غَيْرِنا .

وَلَمْ يَزِدِ الْمُسلمونَ عَلى أَنْ قالُوا :

ـ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ .

ثُمَّ أَضافُوا :

ـ إِنَّنا نَصَرْنا رَسُولَ اللّهِ ﷺ وَآوَيْناهُ ،

وَهَاجَرْنا مِنْ دِيارِنا طاعَةً للَّه وَرَسُولِه ، وَلَيْسَ بَحْثًا عَنِ الشُّهْرَةِ أَوِ الْمَصَالِحِ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ (تعالى) أَنْ يَتقبَّلَ منا صالحَ الأَعْمالِ.

وَانْتَهَزَ الْمُسْلِمُونَ الْفُرْصَةَ وَقَالُوا:

لِمَاذَا لا نَدْعُو هَذَيْنِ الْيَهُودِيَّيْنِ إلَى الإِسْلامِ ، وَقَدْ يَشْرَحُ اللَّهُ صَدْرَيْهِمَا للإسْلامِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً خَيْرٌ لكَ منَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قَالَ الْمُسْلِمُونَ:

- هَلْ نَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا فِي حَيَاتِكُمَا وَبَعْدَ مَمَاتِكُمَا؟

فَقَالَ الْيَهُودِيَّانِ :

ـ وَمَا هُوَ ؟

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ :

ـ أَنْ تَتْرُكُوا هَذَا الْجِدَالَ ، وَتَقْبَلُوا عَلَى الإِسْلامِ بِعُقُولِكُم وَقُلُوبِكُمْ ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ خَيْرًا أَسْلَمْتُمْ وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتُمْ وَشَأْنَكُمْ !

ابْتَسَمَ الْيَهُودِيَّانِ وَقَالا فِي سُخْرِيَةٍ :

ـ لَقَدْ سَبَقْتُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، فَأَخْبِرُونَا أَنْتُمْ بِمَا وَجَدْتُمُوهُ فِيهِ ، وَهَلْ يَسْتَحِقُّ أَنْ نَتْرُكَ مِنْ أَجْلِهِ دِينَنَا ؟

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:

ـ إِنَّهُ دِينٌ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، وَيُسَاوِي بَيْنَ النَّاسِ جَمِيعًا، فَلا فَضْلَ لأَبْيَضَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلا بِالتَّقْوَى.

وَقَاطَعَ الْيَهُودِيَّانِ الْمُسْلِمِينَ بِقَوْلِهِمَا:

ـ مَا هِيَ إِلاَّ مُجَرَّدُ كَلِمَاتٍ تَسْتَمِيلُونَ بِهَا النَّاسَ إِلَى دِينِكُمْ.

فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ:

ـ هَذِهِ هِيَ مَبَادِئُ الإِسْلامِ كَمَا أَمَرَنَا اللَّهُ (تَعَالَى) بِهَا، وَقَدْ يَكُونُ مِنْ بَيْنِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَلْتَزِمُ بِهَا وَمَنْ لا يَلْتَزِمُ بِهَا.

وأضافوا قائلين:

ـ على أية حال، فإنَّ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وخاصةً الصالحون منهم هم أهلُ الفضلِ وهم الشهداء على الناسِ يومَ القيامةِ كما أخبرَ اللهُ (تعالى) بذلكَ.

وشعرَ المسلمونَ بنظراتِ اليهوديين المستنكرةِ فأخذوا يشرحونَ لهما سرَّ تفضيلِ اللهِ لأُمَّةِ محمدٍ ﷺ فقالوا:

ـ إنَّ اللهَ فضَّلَ أُمَّةَ محمدٍ ﷺ لأنها تحافظُ على الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، وكلما ظهرَ فيهم اعوجاجٌ قوَّموه

وغَيْرُوهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ وَأَيْدِيهِمْ.

وَهُنا صَمتَ الْيَهُودِيَّان ولَمْ يتكلَّما ؛ لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيل كَانُوا لا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ ، فَكَانُوا لا يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَلا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَلا يُعِينُونَ الْمَظْلُومَ.

قَالَ اللَّهُ (تَعَالَى) فِيهِمْ:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

[سورة المائدة : ٧٨ ، ٧٩]

وَوَاصَلَ الْمُسْلِمُونَ دَعْوَةَ الْيَهُودِيَّيْنِ إِلَى الإِسْلامِ ، لَكِنَّهُمَا أَصَمَّا آذَانَهُمَا وَفَضَّلا

الانْسِحَاب وَقَالاَ فِى ضِيقٍ:

ـ مَهْمَا تَقُولُوا فَلَنْ نُؤْمِن لَكُمْ ، فَإنَّ دِينَنا خَيْرٌ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْه ، وَنَحْنُ خَيْرٌ وَأَفْضَلُ مِنْكُمْ.

ثُمَّ مَضَيَا إِلَى حَالِ سَبِيلِهِمَا ، بَيْنَمَا بَقِى الْمُسْلِمُونَ يَتَعَجَّبُونَ فِى دَهْشَةٍ وَأَخَذُوا يُرَدِّدُونَ:

اللَّهُمَّ قَدْ بَلَّغْنَا ، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ (تَعَالَى) عَلَى نَبِيِّـهِ ﷺ يَرُدُّ عَلَى هَؤُلاَءِ الْيَهُـودِ وَيُفَنِّدُ مَزَاعِمَهُمْ

وادعاءاتهم بقوله (تعالى) :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

وبذلك أنْزلَ اللَّهُ (تعالى) شهادتَهُ من فوقِ سبعِ سماواتٍ يشهدُ لهذه الأُمَّة ويعترفُ بقدرِها وفضلِها على سائر الأُمَم.

واختيارُ اللَّه لأُمَّة محمَّد ﷺ اختيارٌ ليس فيه مُحاباةٌ ، ولكنَّه اختيارٌ مشروطٌ بالتزامِ المُسلمين بالأمرِ بالمعروف والنَّهي عن المُنكر ، والإيمان باللَّه

وَنَشْرِ رِسَالَةِ الإِسْلامِ فِى الأَرْضِ ، وَدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ والإِحْسَانِ .

وَلِذَلِكَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ «أَنتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عِندَ اللَّهِ» (رواه الترمذى)

وَقَالَ ﷺ :

ـ خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . (متفق عليه)

فَالصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ هُمْ أَفْضَلُ الْمُسْلِمِينَ وَخَيْرُهُمْ ؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ آمَنُوا

بالله حقَّ إيمانه ، وتحمَّلوا التَّعْذيبَ والإيذاءَ فِي سَبيلِ اللَّهِ ، فَمَا غَيَّروا مَوْقِفَهُمْ ولا فُتِنُوا فِي دِينِ اللَّهِ.

وَقِصَّةُ يَاسِرِ بْنِ عَامِرٍ وَزَوْجَتِهِ السَّيِّدَةِ سُمَيَّةَ وَابْنِهِمَا عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ مَعْرُوفَةٌ وَمَشْهُورَةٌ ، حَيْثُ كَانَ الْكُفَّارُ يُعَذِّبُونَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ عَذَابًا شَدِيدًا ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِلرَّسُولِ ﷺ كُلَّمَا رَأَوْهُ:

ـ أَلاَ تَدْعُو لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَيَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ :

ـ صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ.

وَقِصَّةُ تَحَمُّل بِلاَل بْنِ رَبَاح وَعَبْد اللَّه بْن مَسْعُود وَخَبَّاب بْن الأَرَتّ وَغَيْرهم مَعْرُوفَةٌ ، حَيْثُ تَحَمَّلُوا مَا يَفُوقُ قُدْرَةَ الْبَشَر ، وَتَمَسَّكُوا بِدِينِهِمْ حَتَّى نَصَرَهُمُ اللَّهُ .

كَمَا الْتَزَمَ الصَّحَابَةُ بِالأَمْر بِالْمَعْرُوف وَالنَّهْي عَنِ الْمُنْكَر ، فَكَانُوا لاَ يَسْكُتُون عَنْ نُصْرَة الْحَقّ وَمُقَاوَمَة الظُّلْم ، وَكَانُوا يَتَنَاصَحُونَ دَائِمًا وَيُذَكِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا أَخْطَأَ أَوْ نَسِيَ .

فَفِي أَوَّلِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ :

ـ أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ وَجَدتُمْ فِيَّ اعْوِجَاجًا

فَقَوِّمُونِى ، وَإِنْ وَجَدتُم فِى صَلاحًا وَاسْتِقَامَةً فَأَعِينُونِى .

فَقَالَ سَلْمَانُ الْفَارِسِىُّ :

ـ وَاللَّه ، لَوْ وَجَدْنَا فِيكَ اعْوِجَاجًا لَقَوَّمْنَاهُ بِسُيُوفِنَا .

وَلَمْ يَغْضَبْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّاب وَهُوَ خَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ بَلْ حَمِدَ اللَّهَ عَلَى هَذِه الرُّوحِ وَقَالَ :

ـ الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِى جَعَلَ فِى أُمَّة مُحَمَّدٍ ﷺ مَنْ يُقَوِّمُ الْخَلِيفَةَ بِسَيْفِه إِذَا أَخْطَأَ .

وَنَحْنُ ـ الْمُسْلِمِينَ ـ الآنَ أَمَامَنَا الْفُرْصَةُ لِكَىْ نَقْتَدِى بِالصَّحَابَة وَنَتَشَبَّهَ بِهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ لَنَا مِثْلُ أَجْرِهِمْ .

فَبَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ قَالَ :

ـ أَتَدْرُونَ أَىَّ الْخَلْقِ أَفْضَلُ إِيمَانًا ؟

فَقَالَ الصَّحَابَةُ :

ـ الْمَلائِكَةُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

ـ وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ غَيْرُهُمْ . أَىْ هَذَا أَمْرٌ طَبِيعِيٌّ ، فَمَنْ مِنَ الْبَشَرِ ؟

فَقَالُوا :

ـ الأَنْبِيَاءُ .

فَقَالَ ﷺ : وَحُقَّ لَهُمْ بَلْ غَيرهُم ، ثُمَّ قَالَ :

ـ أَفْضَلُ الْقَوْمِ إِيمَانًا قَوْمٌ فى أَصْلاَبِ الرِّجَالِ يُؤْمِنُونَ بى وَلَمْ يَرَوْنى ، يَجِدُونَ وَرَقًا فَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهَا ، فَهُمْ أَفْضَلُ الْخَلْقِ إِيمَانًا .

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا يُقَرِّبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ !

رقم الإيداع : ١٤٠١٩ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : X ـ ٦٦٠ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧